ديداكتيك اللغة العربية
ومشاريع الإصلاح

ليلى بلخير

جامعة العربي التبسي

قسم اللغة العربية وآدابها- تبسة الجزائر

يعد تراجع اللغة اللغة الفصحى من أكبر المشكلات التي يعاني منها طلبة أقسام اللغة العربية، و مكمن الخطورة يتعزز ما دام المجال اللغوي هو العصب المحرك لكل المجالات المعرفية الأخرى، وأي إخلال له مضعفاته على التحصيل العلمي للطلاب والمسار المهني المستقبلي، الذي بالتأكيد يتطلب كفاءة لغوية عالية. وهذه هي الحلقة المفقودة في المنظومة التربوية، من المراحل التعليمية الدنيا، إلى المرحلة الجامعية العليا.

على الرغم من سعي برامج تدريس اللغة العربية في كل الأطوار، على تطوير المهارات اللغوية، والتركيز على الاستعمال الذي يعطي أهمية قصوى للممارسة، والتداول طبقا للنظريات الحديثة الخاصة بتعليم اللغات.

هل المشكل في طرائق تعليم اللغة العربية، أم في ضعف مستوى المؤطرين القائمين بالعملية التعليمية؟ أم في عزوف المتعلمين عن تداولها نظير أسباب نفسية واجتماعية، وثقافية متشابكة، أم عين المشكل في اللغة الفصحى وعجزها عن استيعاب الهموم أوالاهتمامات المعاصرة؟ ما هي العوامل والأسباب التي أدت إلى استفحال هذه الأزمة؟ خاصة أن المقاييس المقررة في أقسام اللغة العربية، مجتمعة لإحياء ملكة اللسان الفصيح أما الواقع فيعكس حالة من الضعف العام، غير مقتصر على فئة خاصة تعاني عجزا وتأخرا، بل أضحى ظاهرة عامة، ووباء يستعلى العلاج.

وللإجابة عن هذه الأسئلة، انطلقت من التأسيس النظري لهذه الظاهرة، تكلمت عن اللفة والسياق التداولي وعلم لغة النص، وآفاق تعليمية اللغات، بعد ذلك قمت بمعاينة لدراسة ظاهرة تراجع اللفة العربية بجامعة تبسة (الجزائر) عن طريق استمارة أسئلة، مناسبة للكشف عن العوامل والأسباب، تطبيقا على عينة من مائة طالب وطالبة في السنة الثالثة والرابعة جامعي ينتمون لقسم اللغة العربية

وآدابها. بعد تحليل الأجوبة ورصد النتائج، ومع مناقشة العوامل المؤدية لاستفحال ظاهرة الفشل اللغوي، حاولت تقديم بعض المقترحات العلمية للخروج من هذه الأزمة.

اللغة والسياق التداولي:

اللغة خصيصة إنسانية بلا مراء، ودراستها من أقد فروع الدراسات المنهجية، ومن أخصبها وأكثرها ثراء، ولا ريب أن للملكة اللغوية كل الخطوة، لعلاقاتها وبشكل جوهري بمظاهر الحياة كلها، سواء في الفكر والإبداع أو الثقافة، أو في التفاعل والتواصل والإعمار الحضاري «وهي مسؤولة بشكل كبير عن أن للبشر وحدهم في العالم الأحيائي تاريخا وتطورا ثقافيا، وتنوعا لا حدود لتعقيده وغناه، بل هي مسؤولة كذلك عن النجاح الأحيائي الذي حققه بالمعنى التقني»(١).

ويقصد (تشومسكي) قدرة هذا العدد الهائل من البشر على التعايش، والتواصل والتنظيم، يعود إلى اللغة التي لا يمكن التفكير في نجاح تقني للبشر بمعزل عن تعاطي مفرداتها، ثم مسألة أخرى مهمة هي التأريخ لهذا النجاح ألا يحتاج إلى لغة؟

ونحاول حصر بحثنا في المجال التداولي للغة، هذا التوجه الجديد الذي يقدم نظرة عميقة ومتميزة للغة، بإعطائها وظيفة أداتية في إطار أوجه نشاط شاملة، فلم تعد اللغة بوصفها نظاما مستقلا، بكل أنظمتها الجزئية وسياقات استخدامها، أساس تحليلات النص، لدرجة هناك بعض الباحثين من يصرح بموت العلامة(٢) وأن

(١) نعوم تشومسكي: آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ط١/ ٢٠٠٥ ص ٨٥

(٢) التداول/التداولي: أقدم تعريف له كان سنة ١٩٣٨، وضعه (موريس)، التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات، ومستعملي هذه العلامات والجمل بالمتكلمين، وتشكلت ملامحها على يد (جون أوستين) سنة ١٩٥٥، وانطلاقا من سؤال مهم عن اللغة والواقع باعتبار التداولية تدرس اللغة كظاهرة خطابية، وتواصلية، واجتماعية معا، وهي تقع في مفترق طرق الأبحاث الفلسفية=

الاهتمام الذي نالته في النصف الثاني من القرن العشرين قد رأت من واجبها الإقرار بنهاية موضوعها، وصار الالتفات إلى اللغة/استعمال[1]، وتراجع النقاشات النظرية، والإسراف في الاحتفال بالرموز والعلامات بمعزل عن سياق تداولها، ومعطياتها المرجعية، هناك شبه تنصل من الدراسات المتعلقة بأوجه الوصف اللغوي النصي[2] والإقبال على دراسة أوجه النشاط اللغوي الفعلي[3].

= واللسانية. تقف على ثلاث مفاهيم:

– مفهوم الفعل: اللغة تخدم إنجاز أفعال، والكلام هو أن نفعل.

– مفهوم السياق: ونقصد به الوضعية وتنطق من خلالها مقاصد تخص المكان، والزمان، وهوية المتكلمين.

– مفهوم الإنجاز: ونقصد بالإنجاز، إنجاز الفعل في السياق، إما بمحايثة قدرات المتكلمين (معرفتهم وإلمامهم بالقواعد) وإما بتوجب إدماج التمرس اللساني بمفهوم أكثر تفهما، كالقدرة التواصلية، من أقطابها (شارل ساندرس بيرس) ومؤسس علم الدلالة (كوتاب فريج) وصاحب التواصلية (لودويك فيتغنشتاين) و(شارل وليام موريس) وغيرهم، انظر فرانسواز أرمينكو: المثقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، وكذا آن روبل وجاك موشلار: التداولية اليوم، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة ١٩٩٨.

(١) أمبيرتو إيكو: السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ط١/ ٢٠٠٥ ص٤٣.

(٢) علم لغة النص: فرع علمي بكر تشكل في النصف الثاني من ستينيات القرن العشرين، والنصف الأول من تسعينياته، يحاول استيعاب مباحث علم لغة الجملة على أساس تكامل، لأنها شرط جوهري للدراسات اللغوية النصية، ويتوسع ليشمل قضايا التواصل، يمتاز بخاصية التداخل، حيث يلامس حدود العلوم اللغوية المجاورة، من بلاغة وأسلوبية، واتسع ليضم إنجازات الدرس اللغوي في العصر الحديث، خاصة مع التحول البراغماتي، والنزوع إلى التطبيق العلمي، وتحديد لدور علم اللغة في المجتمع والحرص على مسائل الاستخدام الفعلي للغة، وقضايا الممارسة اللغوية مثل مشكلات المعلومات اللغوية، واكتساب اللغة، وتعليم اللغة، وإمكانات التأثير المتعددة للغة في الاتصال اليومي، واستعانت بما يدور فيما وراء اللغة في التحليل والتفسير، حين وضع في الاعتبار مستويات القراءة، وأحوالهم النفسية والاجتماعية وأشكال التواصل، درجات الفهم والاستيعاب، طرق التذكير والاستعادة، كيفية الترابط الذهني بالسياقات المختلفة، وأطراف الموقف التواصلي، من أقطابه (هاريس، هارفلج فاينريش، غريماس، فان ديك، فولفانغ هاينه مان ديتر فيهغجر) انظر فولفانج هانيه مان ديتر فيهغتر: مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق ط١/ ٢٠٠٤.

(٣) المرجع نفسه ص٥٢-٥٣.

و من هنا زادت العناية باللغة، بوصفها أداة لتحقيق مقاصد اتصالية، واجتماعية للمتكلمين، ليست نتاجا جاهزا، ومنتهيا، جملة محددة، تحلل نحويا أو دلاليا، إنها أكثر من ذلك بكثير، إنها ممارسة واستعمال، يتطور تحت تأثير بنية التفاعل داخل المجتمع «وهذه النظرة الوظيفية للغة في تفاعلها، إنما هي تصحيح ضروري للنظرة (السيكولوجية) للغة واستعمالها، حيث إن قدرتنا وكفاءتنا في التكلم، إنما هي موضوع جوهري لفلسفة العقل، ومتى تأكدنا من ذلك صارت معرفتنا باللغة ما هي إلا نسق ذهني معقد، إلا أن هذا النسق مثله مثل سائر الأنساق الأخرى المتواضع عليها، قد يصاغ من ناحية أولى عن طريق مقتضيات أثر السلوك المجتمعي وفعاليته، ومن ناحية ثانية يستعمل هذا النسق الذهني، ويتعدل تحت هذه الضغوط والقيود الاجتماعية»(١).

والحقيقة أن الاشتغال في الفترة الأخيرة مكشف بإشكالية التواصل والسلوك التواصلي، والتركيز على الوقائع الكلامية الفعلية، والفعل اللغوي التواصلي الذي يهدف معرفيا إلى إيضاح طرائق السلوك والأفعال التواصلية (اللغوية). إن موضوع علم اللغة لم يعد اللغة فقط بوصفها تجريدا لوقائع كلامية، أو بوصفها نظاما «يعد أساسا لكل ما يتكلم، بل موضوعه الوقائع الكلامية ذاتها»(٢). لم يعد يسأل عن بنية النظام اللغوي، وعن العناصر اللغوية وقوانين اتساقها، وانسجامها، وعن التشكيل الدلالي للرموز اللغوية، بل عن الوقائع الكلامية، كأفعال ومواقف تتحرك بوصفها نشاط كلامي إنساني(تبادلي) ينظر إليه في إطار شروط طرائق الفعل البشري، يبحث عن التفسير في الحاجات العلمية، أولرغبات الثقافية.

(١) فان ديك: النص والسياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي) ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق ٢٠٠٠ ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) كارل ديتربورنتج: الدخل لى علم اللغة، ترجمة سعيد حسن بحري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة ط١/ ٢٠٠٣ ص٢٨٦-٢٨٧.

لم يعد النص يشكل نفسه، وبناءه اللغوي أو الدلالي في وقتنا الحالي، أي إثارة للبحث والدرس، بل أضحت دراسة أوجه الوصف اللغوي النصي، مجرد مرحلة تمهيدية، أولية يقف عليها، لبحث أوجه النشاط الفعلية، الاتصالية المؤسسة للنص بوضعه في سياقات اجتماعية، ومجتمعية شاملة.

وهذا ما نجده ماثلا في هذه الخطاطة[١]:

(الوظيفة الجملية) ⟵ جملة ⟵ (الوظيفة الخطابية) ⟵ الجملة في السياق ⟵ (الوظيفة التداولية)

الدلالـــــــة التداولـــــية

وهنا نفهم من أن المركب الدلالي، يؤدي وظيفتين، الوظيفة الجملية، التي هي وظيفة أولية، تفسر المعنى بوصفه نتاجا عن تشكيل الرموز اللغوية، في نسق الجملة، والوظيفة الخطابية، التي هي وظيفة ختامية وتؤمن انصهار الجملة في الخطاب، وأي جملة جيدة التكوين يمكن تأويلها دلاليا، وتنتج معنى واضحا ومفهوما[٢]، ويصطلح على ذلك بالدلالة الوضعية، والتي تعالج المعنى الظاهر نسقيا من جملة ما، أما ما يريد أن يقول بالضبط مستعمل هذه الجملة، وماذا يقصد باستعماله لها؟ فعله علاقة بالدلالة المقامية[٣] التي تتطلب معرفة بالتأويل للإجابة عنها وطرقها.

وفي ذلك «توسيع معنى النص ليشمل سياقات واستراتيجيات وعوالم محيطة بنا من كل جانب هي أبعد مدى من مجرد التأليف اللغوي»[٤] بهذا يؤسس

(١) روبير مارتن: في سبيل منطق للمعنى، ترجمة الطيب البكوشي، وصالح الماجري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ط١ / ٢٠٠٦ ص٣٠.

(٢) المرجع نفسه ص٢٩.

(٣) أمبرتو إيكو: المرجع السابق ص ١٢٩.

(٤) جاك دريدا: الصوت والظاهرة، مدخل إلى مسألة العلامة في فينومينولوجيا هوسرل، ترجمة فتحي إنقزو، المركز الثقافي العربي، بيروت ط١ / ٢٠٠٥ ص١٢.

(جاك دريدا) في كتابه (الصوت والظاهرة) لفكرة هدم مفهوم العلامة، وتفكيك المنطق الذي يستند عليه، أيضا محاولة اختراق دورة العلامات بدوالها، ومدلولاتها، وإزاحة المفهومات العالقة بها عن مواضيعها ويركز على أزمة العلامة. والاهتمام باللغة من حيث هي فعل وإرادة، وعزم على القول، والغرض منها هو الاقتراب من روح اللغة[١] وإمدادها بروح الفعالية.

وفعاليتها في الاستعمال « فإنه ينبغي التوجه إلى تحديد الضوابط التي تحكم الاستعمالات، والسياقات التي تحدد معاني الكلمات »[٢] لأن الاستعمال يخرج بها من دائرة اللغة الساكنة إلى مجال الكلام المتحرك، ويتمثل أساسا في رصد أوجه التغير الذي يصيب المدلولات باختلاف المواقف التي تستخدِ فيها، والملبسات التي تحيط بها.

علم لغة النص وآفاق تعليمية اللغات:

هذا التوجه الجديد لعلم لغة النص، التطبيقي العلمي، وينصب بالدرجة الأولى حول تعليم اللغات لتطوير أنظمة مفهومة لغويا في مجال الاستيعاب اللغوي التلقائي، وعمليات الفهم واكتساب المعرفة من خلال النصوص، أي توضع وتسخر بوجه خاص يهدف إلى تنمية اكتساب الكفاءة اللغوية.

و من أهم إنجازات علم لغة النص الاهتمام « بالمنهج الاتصالي باعتباره أحدث مناهج تعليم اللغات، وقد استخدم هذا المنهج استخداما واسعا، ويعد في جانب واسع منه رد فعل على الاعتقاد بأن تعلم قواعد اللغة (النحو) يتبع القدرة على استعمالها، تبنى التجارب الاتصالية هناك على أساس النظر إلى وظائف اللغة بوصفها واجبة التوكيد أكثر مما ينبغي أن تؤكد صيغ اللغة »[٣].

(١) المرجع نفسه ص٢٠.

(٢) سعيد حسن بخيري: علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات)، الشركة المصرية العالمية للنشر ط١ /١٩٩٧ص ٢٤.

(٣) محمد العبد: النص والخطاب والسياق، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة ط١ / ٢٠٠٥ ص٥٩.

ولهذا يقترح أصحاب هذا المنهج استعمال النصوص كوسائل لاكتساب المتعلم اللغة، ويتعلق الاشتعال بالنصوص في التدريس بالمرحلة الأولى من اكتساب اللغة، وفي المرحلة المتأخرة من الاتصال اللغوي على المتعلم أن ينجز مهاما وخطوات إجرائية تمكنه من استيعاب النص، اختصار مضمون النص، إعادة ترتيب أفكاره الأساسية، استخلاص الرابط الخفي وصولا إلى بناء نصوص استنادا للنموذج الأصلي؛ وإعادة صياغة مضمون النص...إلخ. ولذلك تتطلب هذه المرحلة من متعلم اللغة ليس فقط المعرفة اللغوية، بل المعرفة الإنجازية، أي المعرفة من بالأبنية النصية الكلية، وفيها مخططات إنتاج النصوص، ومخططات تفسيرها...[1]. وهذا عين المشكل الذي يعاني منه الطالب في قسم اللغة العربية، التراجع في الكفاءة اللغوية، والعجز عن أداء الأنشطة اللغوية الفنية المتعلقة بالفهم والإدراك.

الكفاية اللغوية / الكفاية الاتصالية:

يقول (تشومسكي): «حين تفهم اللغة على أنها ممارسة اجتماعية بالطريقة التي تصورها هذه المناقشات- أن ننظر إلى معرفة اللغة على أنها القدرة يمكن ممارستها بالتكلم والفهم والقراءة والحديث إلى النفس..إلخ أي أن معرفة ما لا تعدو امتلاك القدرة على القيام بهذه الأمور، وأمور أخرى مماثلة»[2]، تعنى الكفاية اللغوية له معرفة المتكلم بلغته، والأداء هو ثمرة المحصلة، أي ما ينتج عن هذه المعرفة من كلام متحقق في مواقف ملموسة، وهي في تعريف (أ.كزار) «قدرة الشخص على إنجاز العمليات الاتصالية اللغوية، وغير اللغوية، متكلما ومستمعا، وفق مواقفها وتبعا لقواعد الجماعة الثقافية الاجتماعية والنفسية الاجتماعية»[3]. وينبني البحث في الكفاية التفاعلية على أساس القانون التالي

(١) فولفجانج هانيه مان ديتر فيهفجر: المرجع السابق ص٣٦٠-٣٦١.

(٢) نعوم تشومسكي: المرجع السابق ص١٦٨.

(٣) محمد العبد: المرجع السابق ص١٧.

من يقول؟ ماذا؟ في أي قناة؟ لمن؟ بأي تأثير؟

و ينبغي في عملية التفاعل تحقيق التطابق التداولي والسينمائي والمحافظة عليه، كما ينبغي مراعاة السياقات الثقافية[١]، وقد أضاف أو كزار الكفاية الاتصالية، لفكرة (تشومسكي) عن الكفاية اللغوية.

و قد رأى بن خلدون في السياق ذاته أن المعرفة اللغوية مكتسبة، فالأوضاع الكلامية غير متكلفة، وإنما ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول، لذلك تكتسب بالطرق الآتية: السمع وهو أبو الملكات اللسانية، والتعليم ووجهه حفظ كلام العرب الجاري على أساليبهم، وكثرة الحفظ، ذلك أن حصول ملكة اللسان العربي، يتحقق بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم، فينسج عليه، ولا تحصل الملكة من حفظ كلام العرب إلا بعد فهمه، وممارسته، فالملكة تحصل بممارسة كلام العرب، وتكرره على السمع والتفطن لخواطر تركيبه[٢] «فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام آل جيله، وأساليبهم في مخاطبتهم ، وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيلقنها أولا، ثم يسمع التراكيب بعدها، فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة، ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم»[٣].

ويمكن تلخيص ذلك كالآتي:

وقوع الفعل اللساني ← صفة للذات ← تكرار الصفة ← زيادة التكرار ← مملكة أوصفة راسخة.

(١) المرجع نفسه ص١٧.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، مراجعة لجنة من العلماء، المكتبة الجامعية التجارية الكبرى، القاهرة، ج١ ص ٥٤٦-٥٦٢.

(٣) المرجع نفسه ص٥٥٤-٥٥٥.

إن أهم انتقاد وجه للمنظرين في موضوع الكفاية اللغوية، هو أن يكون المتكلم متمتعا بصحة وسلامة نحوية، لكنه يعجز في موقفه الاتصالي الاجتماعي، ولهذا كان التوجه نحو الاهتمام بالمجال الوظيفي للغة وكيف تحقق الوظائف والمقاصد من خلال وضع العلامات اللغوية في سياقاتها الاتصالية الاجتماعية المناسبة.

ظاهرة تراجع تداول اللغة:

بما أن الكفاية اللغوية هي: «نظام من القواعد والمبادئ التي تمثل تمثيلا عقليا والتي تمكن المتكلم من فهم جمل حية، وتمكن الجمل من التعبير عن أفكاره إذ ترتبط الأصوات بالدلالات، وينتمي إلى كفاية المتكلم النحوية قدراته التركيبية والدلالية والفونولوجية التي تقضي بتطابق التعبيرات مع ما تعبر عنه في لغة بعينها، كما تضم الحكام عن حسن السبك الشكلي والدلالي، ومرجعية التعبيرات، والتماثل الدلالي، والتعدد الدلالي، ودرجة الانحراف»[1]، أي هي المعرفة اللغوية والقدرة على استخدام هذه المعرفة، امتلاك الكفاية على ممارستها وأدائها.

والتراجع اللغوي في بعده التداولي هو تجرد المتعلم من كل الخصائص السالفة الذكر، أوالتعثر في ممارستها، أثناء تداول اللغة، لأسباب نرصدها، ثم نتناولها بالتحليل في العنصر الموالي.

أسباب تراجع تداول اللغة:

لفهم أبعاد هذه الظاهرة، قمت بمعاينة ميدانية من خلال طرح مجموعة من الأسئلة على طلبة قسم اللغة العربية وآدابها بالمركز الجامعي العربي التبسي، وكان عددهم مائة طالب وطالبة كلهم في السنة الثالثة والرابعة.

والأسئلة هي:

(١) محمد العبد: المرجع السابق ص ٢٣.

- هل كان التحاقك بقسم اللغة العربية وآدابها اختياريا أم جبريا؟
- ما هي الصعوبات التي وقفت دون اتقانك للغة العربية الفصحى؟
- هل تمارس عادة المطالعة بدافع ذاتي، أم بدافع الواجب الدراسي؟

ومن تحليل الأجوبة التي سنذكرها في مواطنها، حددت الأسباب كالآتي:

١- الأسباب العامة:

أ- سوء تخطيط المنظومة التربوية:

لا شك أن وضعية التأخر والتخلف اللغوي لدى طلبة التخصص ظاهرة ملفتة، ومشكلة عويصة، والحقيقة أن هذا الضعف يحمله الطالب معه كلما انتقل إلى مرحلة أعلى، وفي مرحلة الباكالوريا يختار الطلبة المتفوقون ذوي الكفاءات العالية اختصاصات علمية لها قيمة اجتماعية واقتصادية، بينما يوجه من لم يسمح له مجموعه بالاختيار إلى أقسام اللغة العربية وآدابها، وكذا باقي فروع العلوم الإنسانية، لكن دوما أقسام اللغة العربية هي منقذ من لا يجد مقعدا جامعيا على أساس أنه لا يحتاج إلى شروط أو مؤهلات وجب توفرها في الطالب الملتحق بها، لذلك يدخل الطالب، وهو يفتقر إلى أرضية لغوية تمكنه من امتلاك اللغة الفصحى.

وقد بين الاستبيان أن ٥٧٪ من الطلبة الذين أجابوا عن الأسئلة من تخصصات مختلفة في المرحلة الثانوي، أعربوا عن عدم رغبتهم في الالتحاق بقسم اللغة العربية وآدابها، لكن معدلاتهم الضعيفة أرغمتهم على ذلك.

هذه الظاهرة ما هي إلا تحصيل حاصل، ونتيجة رواسب سنوات التحصيل الأولى وفي كل الأطوار التعليمية، وهناك عدة دراسات ميدانية أخرى تؤكد هذه النتيجة. منها دراسة قام بها الأستاذ (علي تعوينات) تحت عنوان "التخلف الدراسي أسبابه وعلاجه"، حيث توصل إلى أن معوقات التحصيل العلمي هي

العجز اللغوي(١). وفي دراسة أخرى بعنوان "التأخر الدراسي اللغوي لدى تلاميذ السنة التاسعة بالمدرسة الأساسية" يتوصل صاحبها إلى أن التأخر اللغوي خلل يتهدد المنظومة التعليمية(٢)، لذا يدق ناقوس الخطر بالدعوة إلى السرعة في معالجة ما أسميناه نحن بتراجع تداول اللغة الفصحى.

إن أمرا كهذا ناتج عن سوء التخطيط الذي تعاني منه المنظومة التربوية، لأن المخطط التربوي الجزائري، وأمام الأعداد الهائلة من الطلبة، وتحقيقا لمبدأ ديمقراطية التعليم، لا يجد أي غضاضة في إلحاق كل الحاصلين على الباكالوريا بالجامعة، وإن لم تسمح مؤهلاتهم بذلك، وبحجة زيادة نسبة الناجحين في الباكالوريا أيضا حدث التسيب في قاعات الامتحانات، وفقدت الشهادة قيمتها العلمية، زيادة على أن كل دفعة عليها ترك المكان لمن ينتظر خلفها، وهكذا تتحول عملية التعليم إلى ركض متسارع، دون هدف أو غاية «فديمقراطية التعليم ـ والتي لا أحد ينكر ضرورتها ـ اصطلاحا تعني تكافؤ الفرص في التعليم، ولا تعني بالضرورة توفير مقعد جامعي لكل حامل الباكالوريا، إن من يعود إلى الأنظمة التربوية العالمية، يجد أن معظمها يعمل على تطبيق مبدأ الديمقراطية، لكن بالشكل الذي يستجيب للاحتياجات الحقيقية للبلاد، من ناحية، وحسب الامكانات المادية من ناحية أخرى»(٣).

والواقع المزري أن المعاهد تقبل انتساب الطلبة إليها حسب المقاعد الجامعية المتوفرة فيها، وأحيانا أكثر من طاقتها الاستيعابية، دون تخطيط منهجي، وصار لزاما على أصحاب الشأن التحرك لإنقاذ الجامعة، ولا يتم الأمر إلا بالدراسة الحقيقية

(١) على تعوينات: التخلف الدراسي أسبابه وعلاجه، مجلة الرواسي، جمعية الإصلاح الاجتماعي والتربوي، باتنة العدد ٤ نوفمبر١٩٩١ ص٢١.

(٢) رشيد مرجانة: التأخر الدراسي اللغوي لدى تلاميذ السنة التاسعة بالمدرسة الأساسية، المرجع نفسه ص ٣١.

(٣) الطيب بلعزي: بعض عوامل تدني التكوين العالي، المرجع نفسه، العدد١ جانفي/ فيفري١٩٩١ ص٤٨.

لحال الطلبة، والسماح لهم بالدراسة في تخصصات قريبة من مؤهلاتهم، وحامل الباكالوريا الذي لم تتوفر فيه المواصفات اللازمة عليه بالتوجه لمجالات مهنية أخرى، أو يحاول التحصيل حتى يمتلك المؤهلات.

ب- الأوضاع الثقافية العامة للبلاد:

من أهم معوقات تداول اللغة الفصحى لدى الطلبة، هو وجودهم أصلا في سياق ثقافي يتميز بالركود والضحالة، والتقهقر؛ مما أصاب ذوي المواهب الأدبية والقدرة اللغوية منهم بالعطب والضمور، خاصة تراجع تداول اللغة الفصحى، انطلاقا من الإدارة، إلى المرافق العامة، انعكس كل ذلك على الطالب سلبا، ليتملص من تداولها سنة بعد أخرى، ويجد نفسه على عتبة التخرج، والأمر أنه يجد نفسه معلما للغة العربية، وهو يفتقد مؤهلات ممارستها؛ وقد اتضح من إجابات بعض الطلبة أنه عند محالة تداول الفصحى على الأقل داخل الحرم الجامعي ومع زملاء من القسم واجهوه بسخرية، فاضطر إلى التخلي عن تداولها، إلا إذا طلب منه ذلك ضمن الإطار الدراسي الرسمي.

و كذلك تراجع المطالعة في وسط طلاب قسم اللغة العربية، إذ بين الاستبيان أن ٧٣٪ من الطلبة لا يقرؤون إلا مجبرين بدافع البحوث طلبا للعلامة، ومن يقرأ فيهم طواعية يجد صعوبة في فهم ما يقرأ، وحتى إن وظف الجمل والنصوص في بحوثه، ينقلها حرفيا دون إيضاح، أو وعي بما ينقل، لذا يجد صعوبة في إيصالها ساعة العرض بلغة فصيحة.

ويقع الطالب في شرك نظام لغوي مغلق حتى يخيل «أن الإطار الثقافي الذي يشغلنا لا يخلو من توجس وتشاؤم وعثرات الاتصال، أو عثرات المجتمع وتناقضاته، وبؤسه الفكري من خلال اللغة التي جعلناها موضوع اهتمامنا»[1]،

(١) مصطفى ناصف: اللغة والتفسير والتواصل، علم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت العدد١٩٣ / ١٩٩٠ ص٢٣٢.

هذا النظام اللغوي من أهم مسببات ضعف تداول اللغة العربية، لأنه يقزمها في قواعد وخلاصات تلقن للطالب، يجد عسرا في فهمها وإعادة تركيبها من جديد، وأدائها بإتقان في صورة من الصور، لأن الكفاءة اللغوية في الاستعمال.

٢- الأسباب الخاصة:

أ- المشكلات البيداغوجية: تعد ظاهرة تراجع تداول اللغة العربية انعكاس لحالة الإحباط من وضع الجامعة في الجزائر، وطلبتها الذين يدرسون فقط ليلتحقوا بزمر العاطلين، ولهذا هناك حالة من السوداوية واليأس، واللامبالاة متوارثة جيلا بعد جيل.

واللغة العربية بالنسبة لطالب التخصص هي العصب المحرك لكل المقاييس المقررة، والتخلف الدراسي الذي يعاني منه الطلبة من رسوب في الامتحانات، وإعادة السنة رغم مرورهم على امتحان شامل وآخر استدراكي، كل ذلك يعود إلى أساس المشكل (العجز اللغوي) الذي يحد من قدرات الطالب على الفهم، والاستيعاب والمراجعة، وإنجاز العروض، وحتى فهم بعض الأسئلة التي تختلف في أسلوبها عن الصياغات الموجودة عنده في المحاضرات.

وتجده يرسب في الامتحان لاصطدامه بالحاجز اللغوي رغم أنه يحفظ كل المحاضرات، ولكن من دون فهم، ودون قدرة على إعادة ترتيب المعلومات بأسلوبه الخاص. فقد بينت أجوبتهم أن ٨٣٪ من الطلبة تعرضوا لصعوبات لغوية أثناء مسارهم الدراسي تتمحور في صعوبة بعض المقاييس اللغوية إذ يجدون عسرا في الفهم خاصة ما تعلق بالمصطلحات الجديدة عليهم، وكذلك صعوبة فهم النصوص في الكتب، وعدم القدرة على تلخيصها بأسلوب خاص، وعند عرضها يكتفي بالقراءة فقط التي غالبا ما تكون متعثرة، بعيدة عن الأداء الفصيح الطليق.

ذلك أنه لم يتدرب على إعادة بناء النصوص بصياغة جديدة، والتلخيص

الطويل منها، وشرح وإطلاق القصير منا أيضا. مما تسبب للطلبة بإعاقة لغوية على مستوى الذهن والعقل أورثت للكثيرين منهم عسرا في فهم محتوى النصوص المقروءة، وغالبا محاولاتهم تتميز بالسطحية، والتعميم، والسبب أنهم ورثوا فهم المفردات حسب معانيها المنعزلة عن الجملة، أي أن فهمهم لها يتم ضمن سياق الجملة، لأنهم أصلا لم يتدربوا على أي مهارات إنجازية لترقية الحصيلة اللغوية.

من أهم المشاكل البيداغوجية التي أورثت لنا هذا الواقع هي عدم مواكبة الجديد في طرائق التدريس، والاكتفاء بالطريقة الإلقائية في المحاضرات، دون إفساح المجال للحيوية والحوار والمناقشة وإعادة ترتيب المعلومات في الذهن بصياغات جديدة، وميسرة.

كذلك طغيان الحصص التطبيقية المثقلة بالعروض التي تتربع على الحصة كاملة، دون الاهتمام بتدريب الطالب على الإلقاء الجيد، فهو يقرأ أوراقا لا يفقه منها قولا، وبالتالي لا يحسن به توصيل الفكرة المقصودة إلى زملائه.

و لهذا كانت توصيات كثيرة من الباحثين في الميدان بالقضاء على هذه الظاهرة، ويحضر الطالب العرض ومعه كل طلبة الفوج، ويتدرب الجميع معا على الأداء اللغوي السليم، ثم عند تذليل كل الصعاب من طرف درس الأستاذ، يفسح المجال بنصف ساعة لأصحاب العرض مع تكليف الطلبة بالتحضير الجيد، والتدريب على التلخيص والإلقاء عن طريق الأسئلة والأجوبة وتقديم الملاحظات الوجيزة «إن أي شخص يعد للكلام في وضع تدريسي يجب أن يعي الإخراج الذي يفرضه استخدام الكلام»(١).

وأيضا عدم التنسيق بين المحاضرة والتطبيق يورث التشتت في الأفكار، وعدم تدعيمها، ولا يفسح المجال لتدريب الطالب على إنجاز المهارات اللغوية، داخل

(١) رولان بارت: هسهسة اللغة، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب ط١ /١٩٩٩ ص٤٢٧.

الحصة التطبيقية، بل تجد المطبق يحاول سد فراغ المعلومات النظرية، بتقديم محاضرات في الحصص التطبيقية.

وأيضا لابد من إعادة النظر في نظم تقويم الامتحانات بما يخدم ترقية المهارة اللغوية للطالب، بتقديم أسئلة تخدم التخصص العلمي، وتساهم في إنعاش قدرة الطالب على استخدام اللغة ، وبالتعبير الذاتي، وعدم تقييده بحفظ صياغات الأساتذة.

وفي الأخير أقول أن هذه المداخلة تأتي للكشف عن أهمية القدرة اللغوية، وتداولها خاصة بين طلبة أقسام اللغة العربية، ولذلك سجلت الخاتم في نقاط هي نتيجة لتحليل نتائج الاستبيان، أراها كفيلة بالمشاركة في تطوير الأداء اللغوي لدى طالب الاختصاص في أقسام اللغة العربية، أذكرها كالآتي:

– تراجع الدراسات النظرية التي تسرف في الاحتفال بالرموز والعلامات، بمعزل عن سياق تداولها، ومعطياتها المرجعية، والتنصل من الدراسات المتعلقة بأوجه الوصف اللغوي النصي، والإقبال على دراسة أوجه النشاط الفعلي.

– الدلالة الوضعية تعالج المعنى الظاهر نسقيا من جملة ما، أما ما يتعلق بمقاصد المتكلم من استعماله ومناسبة هذه الجملة لسياق استعمالها فله علاقة بالدلالة المقامية، المرحلة الأولى من معالجة النص تسمى بالمرحلة الدلالية، والثانية بالتداولية.

– من أهم انجازات علم لغة النص الاهتمام بتدريب متعلم اللغة على أداء أنشطة وإجراءات علمية تمكنه من تنمية قدرته اللغوية بالانتقال من مرحلة المعرفة الإنجازية، وهي المعرفة بالأبنية النصية الكلية، وفيها مخططات إنتاج النصوص ومخططات تفسيرها.

– إن كانت الكفاية اللغوية هي القدرة على استخدام المعرفة اللغوية، امتلاك

الكفاية في ممارستها وآدائها في سياقات اتصالية واجتماعية مناسبة.

والفشل اللغوي هو التعثر في استخدام المعرفة اللغوية والعجز في ممارستها وأدائها، وهذا المشكل يكاد أن يصير ظاهرة عامة بالنسبة لطلبة التخصص. والطبيعي والمناسب، أنهم الصفوة الممتازة في جوامع الكلم الفصيح.

– أما أسباب الظاهرة فقد حصرتها من خلال المعاينة الميدانية، ولاحظت أنها تتشابك فيها الأسباب العامة بالخاصة.

الأسباب العامة منها: سوء تخطيط المنظومة التربوية في توجيه طلبة الباكالوريا دون خطة واضحة، أو إستراتيجية مفهومة، مع سوء تفسير شعار ديمقراطية التعليم، أيضا الأوضاع الثقافية العامة للبلاد، إذ أعرب ٥٧٪ عن عدم رغبتهم في الالتحاق بقسم اللغة العربية، إنما وجهوا إليه قصرا.

من الأسباب الخاصة (البيداغوجية) عدم مواكبة الجديد في طرائق تدريس اللغة العربية، والاكتفاء بتكرار الأساليب البالية، لابد من ربط الدروس بالسياقات التواصلية، والأمثلة الواقعية، والتشجيع على تعاطي مفرداتها وتداول تعبيراتها وأساليبها، كنوع من تشرب الاستعمالات، وإعادة إنتاجها لغويا عن طريق تنشيط الذهن والعقل والفكر، كعمليات التلخيص، وإعادة ترتيب الأفكار، أو شرحها باستعمال الصياغات الخاصة.

– التأكيد على قصدية تدريب الطالب على إنعاش نشاطه اللغوي، كمقصد أولي لإنعاش تحصيله العلمي اللائق بشهادة التخصص (اللغة العربية)، والمحاضرات، والدروس، والبحوث، والامتحانات إلا وسائل مساعدة؛ فالطالب يدرس أربع سنوات لا يفرق بين الوسائل والمقاصد، وفي ذلك تحريك لمعاني التداولية، فـ٧٣٪ لا يقرؤون إلا بدافع الإجبار طلبا للعلامة.

– الاستفادة من انجازات علم لغة النص في تحسين القدرة الإنجازية للطالب،

وتسخير ذلك للحصة التطبيقية، وما على الأستاذ إلا إعادة إخراج الحصة التطبيقية إخراجا يتناسب مع التطور العلمي في الارتقاء بمهارة تداول اللغة في واقع الدرس - ليسهل عليه تداولها في واقع الحياة، فقد بين الاستبيان أن ٨٥٪ من الطلبة أقروا بتعرضهم لصعوبات كثيرة في مسارهم الدراسي.

وأخيرا أقول إنه يتوجب علينا وضع خطة استراتيجية لتطوير طرائق تمكن الطالب من ترقية مهاراته الإنجازية في تعلم اللغة واستعمالها، وبما أن هناك رابط أساس بين التعليم والكلام كما قال (بارت) فلتكن مهمتنا تدريب الطالب على الكلام بلغة فصيحة، إلى جانب تزويده بالمعلومات في شتى المقاييس، حتى يتمكن من التواصل بثقة ونجاح.